النــزيـــل

إيزابيل ألبندي

ترجمة: ماهر البطوطي

تنتمي إيزابيل أليندي، الشيلية الأصل، إلى أحدث جيل من الروائيين في أمريكا اللاتينية. فهي تأتي بعد جيل غابرييل غارسيا ماركيز (كولومبيا) وكارلوس فوينتس (المكسيك) وخوليو كورتازار (الأرجنتين) وماريو فارجاس يوسا (بيرو) وغيرهم. وقد غادرت الكاتبة وطنها بعد انقلاب عام ١٩٧٣ ضدّ الرئيس سلفادور أليندي، وتعيش الآن في كاليفورنيا بالولايات المتحدة. وقد بدأت حياتها القصصية عام ١٩٨١ بروايتها بيت الأرواح، التي تلتها رواية عن الحبّ والظّلال. وهذه القصّة التي نقدّمها اليوم للقارئ العربي واحدةٌ من مجموعة قصص قصيرة بعنوان حكايات إيفا لونا.

دخلت المدرّسة إنيس متجر جوهرة الشّرق، وكان خالياً من الزبائن في تلك السّاعة، ومشت إلى النضد حيث كان رياض حلبي يطوي لفّةً من القماش الزاهي الألوان، وأعلنتْ أنّها قد قطعتْ لتوّها رأسَ أحد نزلاء فندقها. فتناول التّاجر منديله الأبيض وغطّى به فمه.

ـ ماذا تقولين يا إينيس؟

ـ ما سمعتَه منّي تماماً أيّها العربي.

ـ وهل مات؟

ـ طبعاً.

ـ وماذا ستفعلين؟

فأجابته وهي تعقد خصلةً من شعرها إلى الوراء:

ـ هذا ما جئتُ أسألك عنه.

فقال رياض حلبي وهو يتنهّد:

ـ أظنّ أنّه يحسن بي أن أغلق المحل.

كان أحدهما يعرف الآخر منذ زمن طويل لدرجة أنّ أيّاً منهما لا يستطيع أن يتذكّر تماماً عددَ سنوات صداقتهما، رغم أنّ كليهما مايزال يذكر كلّ شاردة وواردة منذ اليوم الذي تعارفا فيه. وقتها كان حلبي واحداً من أولئك الباعة الذين يجولون في الطرقات الجانبيّة يعرضون بضائعهم؛ واحداً من الحجيج التجار ممّن لا يملكون بوصلةَ توجّههم أو مساراً ثابتاً؛ مهاجراً عربيّاً بجواز سفر تركيّ مزوّر، وحيداً، متعباً، ذا شفة مشقوقة كشفة الأرنب تدفعه إلى عدم تعريضها للشّمس. وكانت هي ماتزال امرأةً في مقتبل العمر، ذاتَ جسد مستدير وكتفين ناهضَتين؛ وكانتِ المدرّسةَ الوحيدة في البلدة، وأمّ صبيّ في الثانية عشرة من عمره، جاء نتيجةً لعلاقة حبّ عابرة. وكان الصبيُّ هو مدار حياة المدرّسة، فهي تُعْنى به بتفانٍ لا حدّ له؛ بيد أنّها كانت تحاول إخفاءَ ميولها التي تدعوها إلى محاباته، وذلك بأن تطبّق عليه قواعدَ النظام التي تطبّقها على التلاميذ الآخرين في المدرسة. فهي لم تكن تريد أن يقول أحدٌ إنّها قد نشّأتْ ابنَها تنشئةً سيّئة، ولكنّها كانت تأمل في الوقت ذاته أن تقمع فيه ميراثَ أبيه الذي ينزع إلى التقلب، وأن تبذر فيه الذهنَ الصافي والقلبَ الكريم.

وفي المساء الذي دخل فيه رياض حلبي بلدةَ «أجواسانتا» من أحد جوانبها، كانت مجموعةٌ من الصبية قد حملتْ من جانب البلدة الآخر جسدَ ابن إينيس المدرّسة على نقّالة. فالحال أنّه كان قد دلف إلى ضيعة أحد الأشخاص ليلتقط منها ثمرةَ مانجو ساقطةً، فأطلق عليه صاحبُ الضّيعة ـ وهو غريبٌ لا يعرفه أحدٌ حقَّ المعرفة ـ صليةً من بندقيّته ليخيفه؛ بيد أنّها أحدثتْ ثقباً أسود في وسط جبهته أسرعت حياتُهُ بالهرب من خلاله. وفي تلك اللحظة، اكتشف البائع العربيُّ موهبته في القيادة، ووجد نفسه دون أن يدري السبب، في قلب الأحداث: يعزّي الأمّ، وينظّم الجنازة كأنّما هو أحدُ أفراد العائلة، ويهدّئُ من ثورة النّاس ليمنعهم من تمزيق المعتدي إرباً. وفي تلك الأثناء، كان القاتل قد أدرك أنّ حياته لن تكون في مأمن لو بقي في البلدة. فهرب منها وهو لا ينتوي العودة.

وكان رياض حلبي هو الذي قاد المسيرة في اليوم التالي من المقابر إلى المكان الذي سقط فيه الصبيُّ قتيلاً. كان كلّ سكّان «أجواسانتا» قد قضوا ذلك اليوم يجمعون ثمارَ المانجو ثمّ يقذفونها إلى

نوافذ البيت إلى أن امتلأ البيتُ بها من أرضيّته إلى سقفه. وبعد عدّة أسابيع، خمَّرتِ الشّمسُ الثّمار، فانفجرت عن عصير لزج لطّخَ الجدرانَ بدماء صفراءَ وصديدٍ حلو، فحَوَّل المنزل إلى حفريّة من حفريات ما قبل التّاريخ فإذا هو أشبه بحيوان هائلٍ في عمليّة تحجر، يزيد من عذابه هِمّة اليرقات اللاّمتناهية والنّاموسُ الذي يعيث فيه تحلّلاً.

وكان موتُ الصبيّ، والدّورُ الذي لعبه رياض حلبي في تلك الأيّام، والترحاب الذي لَقِيهُ في «أجواسانتا» قد عملتْ على تحديد مسارِ حياة هذا الإنسان العربي. فنسي حياة آبائه في التجوال واستقرّ في البلدة، حيث افتتح متجراً سمّاه جوهرة الشرق. وتزوّج، ثمّ ترمّل، وتزوّج ثانية، وواصل تجارتَه، في حين نمت سمعتُه بوصفه رجلاً أميناً عادلاً. وعملت إينيس بدورها في تعليم عدّة أجيال من الأطفال بالودّ المُفْتَرَضِ بَذْلُهُ لابنها، حتّى استُنفِدَتْ طاقاتها، فتنحّتْ عن الطريق فاسحةً المجال لمدرّسين وصلوا من المدينة بمناهج جديدة، وتقاعدت. وبعد أن تركت عملها في المدرسة، شعرت بالشّيخوخة فجأة، كأنّما الزّمن يسرع بها، ومرّت الأيّام بسرعة لم تستطع معها أن تتذكّر كيف تنقضي السّاعات.

قالت معلّقة: إنّني أمضي كأنّما أنا في ذهول، أيّها العربي. إنّني أموت ولا أكاد أدرك ذلك.

فأجاب رياض حلبي: إنّك في أتمّ صحّة وعافية يا إينيس. المشكلة هي أنّك تشعرين بالملل. يجب ألاّ تَبْقيْ بلا عمل.

واقترح عليها أن تضيف بعضَ الحُجرات إلى منزلها وتجعل منه فندقاً صغيراً، مردفاً:

ـ ليس في البلدة فندق.

فردّتْ: ذلك أنّه ما من سيّاح يفدون إلينا.

ـ إنّ سريراً نظيفاً وإفطاراً ساخناً نعمةٌ يرحّب بها أيُّ مسافر.

وهكذا كان الأمر في البدء لسائقي شاحنات البترول، الذين كانوا يقضون اللّيل في فندقها حين يملأ التعبُ ورتابةُ الطريق رؤوسَهم بالهلوسة.

كانت المدرّسة إينيس أكثرَ النّسوة الكبيرات مدعاة للاحترام في «أجواسانتا». فقد علّمت أجيالاً عديدة من أولاد البلدة، وهو ما منحها حقّ التدخّل في جميع شؤون حياتهم وشَدِّ آذانِهِم إذا رأتْ ذلك ضرورياً. وكانت الفتياتُ يعرضن عليها أصدقاءَهُنّ كيما يحصلن على موافقتها عليهم، والزوجات والأزواج يأتون إليها لحل مشاكلهم الزوجيّة. كانت إينيس مستشارةً وحَكَماً وقاضياً في جميع مشاكل البلدة. وكانت سلطتها في الواقع تفوق سلطةَ القسّ أو الطبيب أو الشرطي. ولم يحاول أحدٌ أن يمنعها من مزاولة تلك السّلطة. ففي إحدى المرّات، اقتحمتْ إينيس قسمَ الشّرطة، وتخطّتِ الضابط دون كلمة، وخطفت المفاتيحَ المعَلّقَة على الحائط بمسمار، وأخرجتْ من الحجز تلميذاً من تلامذتها السّابقين كان قد أُلقي القبضُ عليه بعد ليلة شراب صاخبة. وحاول الضّابط أن يقف في طريقها، ولكنّها أزاحته وأخرجت الصبيَّ أمامها ممسكةً به من ياقة قميصه. وبعد أن خرجت به إلى الطريق، سدَّدَتْ إليه بعضَ اللّكماتِ وأكّدتْ له أنّه إذا تكرّر منه ذلك السّلوك فسوف تضربه علانيةً علقةً على مؤخّرته لن ينساها طوال حياته!

وفي ذلك اليوم الذي حضرتْ فيه إينيس لتخبر رياض حلبي أنّها قد قتلت أحد زبائنها، لم يخامره الشكُّ لحظةً بأنّها جادّةٌ فيما تقول، لأنّه كان يعرفها جيّداً. بل تناول ذراعها وسار معها قاطعين صفّي المنازل اللّذين يفصلان جوهَرَة الشرق عن منزلها. كان منزل إينيس أحدَ أكبر المباني في البلدة، من الآجر والخشب، ذا شرفة عريضة تُنصب فيها شبكاتُ النّوم خلال فترات الظهيرة التي تشتدّ فيها الحرارة، وبه مراوح في سقف كلّ حجرة. وكان البيت في تلك السّاعة يبدو خالياً؛ فلم يكن هناك سوى نزيل واحد قد جلس في البهو يحتسي البيرة وقد تصلّبَ أمام جهاز التلفزيون.

وهمس التّاجرُ العربيّ: أين هو؟

فردّت إينيس دون أن تهتّم حتّى بخفض صوتها: في إحدى الحجرات الخلفيّة.

وقادته إلى صفّ الحجرات التي أعدَّتْها للإيجار، يصل فيما بينها جميعاً ممرٌ مسقوفٌ تتسلّق على أعمدته الزهورُ الأرجوانيّة وتتدلّى من روافده أصصُ النباتات الخضراء، وإلى جوارها فناء مزروع بأشجار المشملة والموز. فتحَتْ إينيس البابَ الأخير، ودخل رياض حلبي حجرةً تكتنفها الظلالُ العميقة. كانت مصاريع النّافذة مغلقة. ومضت برهة قبل أن يرى على السّرير جثّةَ رجل عجوز ذي مظهر مسالم، غريب هرم يسبح في بركة من موته الذّاتي، وسراويلُهُ ملوّثةٌ بالبراز، ورأسه معلّق بخيط من اللّحم الرّمادي، يكسُوهُ تعبيرٌ مريع من الألم، كأنّه يعتذر عن كلّ هذا الإزعاج وكلّ هذه الدّماء، ويعتذر أنّه قد سمح لنفسه أن يموت مقتولاً مسبِّباً كلّ هذه المضايقة غير العاديّة. جلس رياض حلبي على المقعد الوحيد في الغرفة، عيناه مثبّتتان على الأرض، يحاول أن يسيطر على غثيان معدته. وبقيت إينيس واقفة، ذراعاها منعقدتان على صدرها، تفكّر في أنّ الأمر سيحتاج منها إلى يومين كي تغسل البقع ويومين آخرين على الأقلّ كي تخلّص الحجرةَ من رائحة البراز والخوف.

وسأل رياض حلبي أخيراً وهو يمسح العرق عن جبهته: كيف فعلتِ هذا؟

ـ ببلطة ثمار جوز الهند. جئتُ من خلفه وقطعتُ رأسَه بضربةٍ واحدة. لم يعرفْ قط، ذلك المسكينُ بِمَ ضُرِبَ.

ـ ولماذا فعلتِ ذلك؟

ـ كان عَليَّ أن أفعله. إنَّه القدر المحتوم. إنَّ هذا العجوز حظّه سيِّئٌ للغاية. لم يكن ينوي أبداً أن يتوقّف في «أجواسانتا»؛ فلقد كان يسوق عربته عبر البلدة حين حطّم حجرٌ نافذة العربة الأماميّة. فحضر إلى هنا لقضاء سويعات إلى أن يتمكّن ذلك الإيطالي في المرآب من العثور على بديل للنّافذة. لقد تغيّر كثيراً ـ فقد كبرنا جميعاً في السّن على ما أعتقد ـ بيد أنَّني تعرّفت عليه على الفور. كنت أنتظر طوال هذه السّنوات، وكنت أعلم أنَّه سيأتي عاجلاً أم آجلاً. إنَّه الرّجل صاحب المانجو!

فغمغم رياض حلبي: فليشملنا الله برحمته.

ـ هل تظنّ أنَّ علينا أن نتصل بضابط الشّرطة؟

ـ كلا، البتّة. لماذا تقولين هذا؟

ـ إنَّ الحقّ معي. لقد قتل ابني.

ـ إنَّ الضّابط لن يفهم هذا يا إينيس.

ـ العين بالعين والسنّ بالسّنّ، أيّها العربي. أليس هذا ما يذكره دينُك؟

ـ ولكنَّ القانون لا يعمل على هذا المنوال يا إينيس.

ـ حسن إذن، يمكننا أن نعدّل من الأمور ونقول إنَّه قد انتحر.

ـ لا تلمسيه. كم نزيلاً لديك الآن في الفندق؟

ـ سائق الشّاحنة ذاك فحسب. وسوف يواصل سفره حين تنكسر حدّةُ الحرارة؛ فعليه أن يذهب إلى العاصمة.

ـ حسن. لا تقبلي أيَّ نزيل آخر الآن. أغلقي بابَ هذه الحجرة بالمتراس وانتظريني. سأعود في اللّيل.

ـ ماذا ستفعل؟

ـ سوف أعالج هذا الأمر بطريقتي.

كان رياض حلبي في الخامسة والستّين من عمره، ولكنَّه كان قد احتفظ بقوّة الشّباب والرّوح التي وضعَتْهُ ذاتَ يومٍ على رأس الجماعة يوم وصل إلى «أجواسانتا». غادر منزلَ المدرِّسة ومشى مسرعاً للقيام بأوَّل زيارة من سلسلة زيارات كان عليه أن يقوم بها ذلك الأصيل. وبعدها بقليل، بدأت همهمةٌ متواصلة تسري عبر البلدة. فقد استيقظ سكّانُ «أجواسانتا» من خمول السّنين وقد استثارتهم أنباءٌ عصيّةٌ على التصديق، يتناقلها بيتٌ عن بيت؛ طنينٌ مستمرّ؛ أخبارٌ تطاولت إلى أن صارتْ صياحاً؛ ثرثرةٌ أضفتْ عليها ضرورةُ أن تكون على مستوى الهمس مركزاً خاصّاً.

وقبل أن تغيب الشمسُ، كان بوسع المرء أن يحسَّ في الهواء ذلك الاستعلاءَ القلقَ الذي سيصبح لعدّة سنين قادمةٍ صفةً من صفات البلدة: صفةً لا يفهمها الغرباء الذين يمّرون بها، فلا يعثرون على أيِّ شيء غير عادي في هذه البلدة التي لها مظهرُ بركة المياه الرّاكدة، مثلها مثلُ كثيرات متناثرة على حافّة الغابات. وبدأ الرّجال يتوافدون إلى الحانة مع بواكير المساء؛ وحملت النساءُ كراسيهنّ إلى الأرصفة وجلسن يستمتعن بالهواء المنعش؛ وتجمهر الشبّان في الميدان، كأنَّما اليوم يوم أحد؛ وقام الضّابطُ وثلةُ الجنود بجولاتهم بلامبالاة، ثمَّ قبلوا دعوة الفتيات في منزل البغاء إلى حضور حفل عيد ميلاد واحدةٍ منهنّ، كما ادَّعين لهم. وما إن انسدلَ اللّيلُ حتّى كان الطريق يغصُّ بالنّاس على نحو يفوق تجمُّعَهم في يوم عيد جميع القدّيسين. وكانوا كلّهم مشغولين تماماً بأنشطتهم حتّى بدوا وكأنَّهم يشاركون في جزء من فيلم سينمائي: كان البعض يلعب الدومينو، وآخرون يحتسون شرابَ الرّوم ويدخّنون على نواصي الطرقات، وآخرون يتمشَّوْنَ ثناءَ ثناءَ وقد تشابكتْ أيديهم، وأمهاتٌ يجرين خلفَ أطفالهنّ، وجدَّاتٌ يتطلّعنَ صائحاتٍ من وراء أبواب مفتوحة. أشعل القسُّ مصابيحَ الأبرشيّة ودقَّ الأجراس معلناً عن إقامة تاسوع للشهيد سان إيسيدرو؛ ولكن لم يكن هناك مَنْ هو على استعداد وقتَها لحضور مثل هذه الصّلاة.

وفي التاسعة النّصف، عُقد اجتماعٌ في منزل المدرِّسة إينيس، حَضَره العربيُّ، وطبيب البلد، وأربعةُ شبّان كانت إينيس قد تولّتْ تعليمهم منذ المرحلة الأولى وهم الآن محاربون عادوا من خدمتهم العسكريّة. وقادهم رياض حلبي إلى الغرفة الخلفيّة حيث وجدوا الجثّة وقد غطّتها الحشرات؛ فقد تُركت النّافذةُ مفتوحة. وكانت السّاعة ساعة النّاموس. حشروا الضحيّةَ في جوال من القماش، وحملوه إلى الطّريق، وألقوا به دون احتفال في خلفيّة شاحنة رياض حلبي. وقادوا العربة عبر البلدة، في الطّريق الرئيسي ذاته، ملوِّحين بأيديهم، كعادتهم، لكلّ من يرونه. وقد ردّ بعض الجيران تحيّتهم بحماس أشدّ من المعتاد، بينما تظاهر آخرون بأنَّهم لم يروهم، وهم يضحكون خفيةً كأنَّما هم أطفال فاجأهم أحدهم متلبّسين بعمل غير مشروع. وتحت أشعّة القمر المنيرة، توجّه الرّجالُ إلى البقعة التي انحنى فيها لآخر مرّة منذ سنوات كثيرة ابنُ المدرِّسة كيما يلتقط ثمرةَ مانجو. وتبدَّت الضيعةُ جامدةً وسط أعشاب النسيان الطفيليّة، وقد أعمل فيها الزمنُ والذكرياتُ الحَزينة نابَ الاضمحلال؛ تبدَّتْ ربوةً متشابكةً نمتْ فيها ثمارُ المانجو على نحو برّي، فتساقطتْ حبّاتُها من الأشجار واتّخذتْ جذوراً في الأرض فولدت أشجاراً جديدة ولدت بدورها أشجاراً، إلى أن نشأت غابةٌ لا تخترقها الحجبُ ابتلعتِ الأسوارَ والطرقَ وأطلال المنزل الذي لم يتبقَ منه سوى أثر ضئيل من رائحة المربّى. وأشعل الرّجال مصابيحهم الغازيّة ثمَّ انقضُّوا على البقعة الكثيفة يشقّون طريقاً لهم بالبَلْطات. وحين شعروا أنهم قد أنجزوا ما فيه الكفاية، أشار أحدهم إلى مكان ما. وهناك، على سفح

بالثّمار، حفروا حفرة عميقة أودعوا فيها الجوال القماشي. وقبل أن يهيلوا الترابَ على الحفرة، غمغم رياض حلبي بصلاة إسلاميّة، لأنّها كانت الصّلاة الوحيدة التي يعرفها. وحين عاد الرّجال إلى البلدة، رأوا أنَّ أحداً لم يأوِ إلى فراشه؛ كانت الأنوار تسطع في كلّ النوافذ، والنّاس تروح وتجيء في الطّرقات.

في تلك الأثناء، كانت المدرِّسة إينيس قد حكّت بالفرشاة جدرانَ الغرفة الخلفيّة وأثاثها؛ وأحرقت مرتبة السّرير وملاءاته، وجدّدت هواء المنزل، ثمَّ جلست في انتظار أصدقائها بعد أن أعدّت لهم عشاءً طيّباً وجرّة مليئةً بشراب الروم وعصير الأناناس. أكل الجميع الطعام وهم يتحدّثون حديثاً طليّاً عن آخر مصارعات الديكة، وهي مصارعة وحشيّة في رأي المدرِّسة وإن ادّعى الرّجال أنّها أقلّ وحشيّة من مصارعة الثيران التي فقد فيها مصارعٌ كولومبيٌّ كبدَه.

وكان رياض حلبي آخر من غادروا المنزل. وفي هذه الليلة، ولأوّل مرّة في حياته، شعر بالشيخوخة. وعند الباب، أمسكت المدرِّسةُ إينيس بيديه وتركتهما هنيهة بين يديها، قائلةً: شكراً أيّها العربي.

ـ لماذا جئتِ إليَّ أنا يا إينيس؟

ـ لأنَّك الشّخص الذي أكنُّ له أكثرَ الحبّ في هذه الدّنيا؛ ولأنّك كان يجب أن تكون أبَا ابني!

في اليوم التالي، عاد سكّان «أجواسانتا» إلى أعمالهم اليوميّة وقد أشاع فيهم التواطؤ الرّائعُ حماساً. فثمّة سرّ يحتفظ به جيرانٌ طيّبون في داخليّتهم، ويكتّونه في صدورهم بكلّ حماس ويتناقلونه أباً عن جد بوصفه أسطورةً من أساطير العدالة، إلى أن حرَّرتنا وفاةُ المدرِّسة إينيس، فاستطعتُ الآن أن أحكي هذه القصّة.

كـــاهـنـــة

فريد أبو سعدة

رتّبي مَوْتَنَا
لم يجئ حبنا بالخلاصِ
ولا الشعر همّ بنا

قالت الريحُ: إنّ المدينة مسكونةٌ بالشياطينِ
قلتُ: الثعابينُ من خلفنا
تترصّدنا من زجاجِ النوافذِ
تحت الوسائدِ
في الأعين الخائنه

قالت الريحُ: دعني لها
قلتُ: لا شيء يصلحُ ما أفسد البوحُ
في اللحظةِ الراهنه

رتّبي موتنا
لم يجئ صبرُنا بالخلاصِ
ولا الصمتُ همّ بنا

قالت الزلزلةْ:
كل شيءٍ أقوّضهُ فانتظرْ
سوف ألقي عليها الجبال الرواسي
أخضخضها بين كفيّ
حتى تقاسي
وأجعلها بكْ يا سيدي
تأتمرْ

قلتُ: لا يملك الحلمُ سيفاً يجيءُ
فهل يملك السيفُ أن يحلما
وهل يملك القلبُ أن يستمر
ولا يسأما؟

قلتُ: إني أجفُّ من القيظِ
وهي على الصدر قاعدة
كالحجرْ

رتّبي موتنا
لم يجئْ دمعنا بالخلاصِ
ولا الخوف همّ بنا
قالت النارُ: إن المدينة كاهنةٌ
تمتطي الناس بالسّحرِ
دعني لها
سوف أحرق عين المدينةِ
أغرزُ سيفاً من النارِ في قلبها
قلتُ: لا
ليس منجانا موتُ المدينةِ
أو مرتجانا
فهل يأخذ القلبُ سمتَ المعذِّبِ
أو تكتريه الرؤى اللاعنهْ؟

رتّبي موتنا

يصرخ الدمُ: دعني لها
قلتُ: لا
فالمدينة روحٌ
وليست سكنْ
المدينةُ تأخذ شكل الوطنْ
فاستبنْ
أيها الدم من سوف تقتلُ
مَنْ!

رتّبي موتنا
فلعل المدينة
إذ تتوضأ من دمنا
يبطل السحرُ
تهربُ منها الشياطينُ
تنسلّ منها الثعابينُ
والشعر يزهو بنا

القاهرة